المبحث الثاني

الفواصل التاريخية

لا نريد بهذا الفصل التاريخي أن نسرد الحوادث التي وقعت في الجزائر المسلمة، منذ احتلالها من قبل فرنسا الصليبية عام ١٨٣٠، لكنّنا نعمد إلى جملة من المحطّات، والفواصل التاريخية الكبرى التي نراها هامة، والتي ولدت في ظلها القصيدة الجزائرية بعامّة، وقصيدة أحمد سحنون بخاصة.

وسيكون الحديث وفق «ثلاثية» أساسها: الفرنسي الظالم المستبد، الذي كشف عن سلوك وحشي همجي مرعب، حكم به الجزائر طيلة قرن وربع القرن من الزمن، أما الشق الثاني من الثلاثية فيتعلق بالإنسان الجزائري المجاهد الرافض الذي تحدّى بالعلم والسلاح الممثلين في جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وجهود كل المخلصين الذين فجّروا جهاد نوفمبر (كانون أول) ١٩٥٤، ويتعلق الشق الثالث بزمن الاستقلال الذي كشف عن مجموعة من المتغيرات الحضارية الخطيرة التي ولدت في ظلها قصيدة ذات مضامين إسلامية نقدية واعية.

أ ـ فرنسا والمغامرة الحمقاء

لقد بدأت فرنسا مغامرتها الصليبية في الجزائر منذ عام ١٨٣٠ حيث «استسلمت الحكومة في ٥ جويلية (تموز) من نفس العام ، ثم أمضى كل من الداي رئيس الدولة الجزائرية ، والكونت دي بورمونت القائد الأعلى للجيش الفرنسي معاهدة تعرف باتفاق الجزائر» (١) ، والاتفاق دال على هزيمة تمَّت بموجب قانون الإزاحات الحضارية الكبرى ، التي حدثت للعالم الإسلامي حين خطَّط الاستعمار الغربي الصليبي لتجزئته إلى أقاليم ومحميات واقعة تحت سيطرته ، وتبعاً لمفهوم الإزاحة السابقة فقد عمدت فرنسا إلى الوسائل التالية :

١ ـ **إعلان الحرب ضد الإسلام** : الذي رأت فيه فرنسا قوة الشعب الجزائري وسلامته وتماسكه ، وهي العناصر التي تقلقها وتهدد مصالحها ، وقد جندت لهذه الحرب المعلنة جيوشاً جرارة باركتها الكنيسة ، التي رفعت شعار التنصير الذي يجب أن يسود الجزائر بل إفريقيا كلها ، ويمكننا أن نقرأ هذا العمل المزدوج في جهد تبشيري خاص ، قام به الكاردينال "لافيجري" (١٨٢٥ـ١٨٩٢) «فلما وطئت قدماه لأول مرة الأرض الجزائرية في ١٥ ماي (أيار) ١٨٦٧ م كان يؤمن أن نشر المسيحية ركن أساسي في البناء الاستعماري الذي تنشده فرنسا» (٢) وفي سبيل ذلك خاطب رهبان الجزائر قائلاً : «سآتيكم إخواني الأعزاء في ساعة مشهورة في تاريخ إفريقيا المسيحية . . . الكنيسة وفرنسا متحدان لإحياء أمجاد الماضي) » (٣) .

---

(١) «الحركة الوطنية الجزائرية»، د . أبو القاسم سعد الله ـ ج٢ ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ ط٢ ـ ١٩٧٧ : ص١٤ .

(٢) «حركة التبشير في المغرب العربي» ، د . الحبيب الجنحاني ـ الأصالة ـ ع ١٦ ـ وزارة التعليم الأصلي ـ الجزائر : ص٢٩ .

(٣) المرجع نفسه : ص٢٩ .

وقد راهن الجنرالات الفرنسيون على هذا الحلم ، فأعدُّوا له العدّة ، وسخروا له كل وسيلة متاحة ، وفي ظل ذلك ينتشي كاتب الجنرال "بوجو" Bujeaud(*) ويعلن فرحته قائلاً : «آخر أيام الإسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح ، أما العرب فلن يكونوا ملكاً لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعاً ، ونحن إذا أمكننا الشك في أنَّ هذه الأرض تملكها فرنسا فإننا لا نشك في أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد» (١) .

هكذا بدأت معالم الحلم الصليبي وسماته تظهر ، وكان ظهورها على يد جنرالات دأبوا على القتل والتشريد وسفك الدماء ، ومباركة كل وسيلة تؤدي إلى تنصير الجزائر ، بل وإزالتها من جغرافية العالم الإسلامي ، يقول سيد قطب في هذا المجال : «لقد أريد بالجزائر أن تكون أندلساً جديدة ، أريد لها أن تنسلخ من جسم الوطن العربي الإسلامي ، وأن تبتلعها الصليبية . . . لقد امتدَّت هذه الأساليب إلى تفتيت التماسك العنصري والعائلي ، وامتدَّت إلى تخليط الأنساب وتحطيم الأخلاق . . . »(٢) ويمتد الحلم الفرنسي ليصير حقيقة مزعومة بعد مرور مائة عام على الاحتلال ، إذ احتفلت فرنسا عام ١٩٣٠ بتشييع جنازة الإسلام في الجزائر ـ كما تزعم ـ(**) وقد وفَّرت فرنسا لهذا الحلم جملة من الأسباب أهمها :

أ ـ هدم المساجد وتحويلها إلى كنائس ، وإبطال شرعية المواسم والأعياد الإسلامية : وقد أصاب هذا التحويل أوَّل مسجد قابلهم بالجزائر العاصمة هو مسجد كتشاوة الذي حُوِّلَ إلى كنيسة ، وتبعاً لهذا العمل المفضوح فقد أعدمت فرنسا

(*) الجنرال "بوجو" هو الذي عيّن حاكماً عاماً على الجزائر منذ عام ١٨٤٠ وهو صاحب سياسة الأرض المحترقة، ولذلك اشتملت أوامره على حرق المحاصيل الزراعية، وحجز النساء والأطفال وخنق قبائل كاملة في الكهوف . . . انظر : الحركة الوطنية : ج٢ ص ١٩ .

(١) الشعر الجزائري الحديث، د . صالح خرفي ـ م و ك ـ الجزائر ـ ١٩٨٤ : ص ١١ .

(٢) كفاح الجزائر، سيد قطب ـ البصائر ـ س٢ ـ ع ٢١٤ ـ ٢٣ /١٩٥٣/٠١ـ الجزائر .

(**) لمزيد من الاطلاع حول الموضوع انظر : Le Maghreb entre deux guerres

1962 - 233- Paris - le seuil –Jaques Berque

العلماء ، وشجّعت آلاف المبشّرين للعمل في أرجاء واسعة من القطر الجزائري (وكل ذلك هدفه تجريد الشعب الجزائري من شخصيته العربية الإسلامية ، والزجّ به في أوحال من المسيحية والتغريب) (١) .

ب - استبدال القضاء الإسلامي بالقضاء الفرنسي : يقول أحد الفرنسيين : «يجب أن يمحى القاضي المسلم أمام القاضي الفرنسي ، فنحن الفاتحون ، فلنعرف كيف نفرض إرادتنا» (٢) وتبعاً لهذا فقد ألغي المجلس الأعلى للقانون الإسلامي في عام ١٨٧٥ كما ألغيت المجالس الاستشارية ، وبعد هذا واجه الجزائريون مصيراً أسود حين واجهتهم المحاكم الفرنسية بتهم لا حصر لها .

جـ - تشجيع الطرقية : لقد انتشرت الطرق الصوفية الممثّلة في ، الرحمانية ، والتيجانية ، والقادرية ، وغيرها في الجزائر ، إذ بلغ عددها ما يقارب ثلاث عشرة طريقة ، ويبدو أن منهج هذه الطرق المعتمد على المغالاة المفضية إلى الدروشة ، قد شجّع الاستعمار الفرنسي على أن يجد له علاقة حميمة مع بعض الطرق ، التي ساعدته في احتلاله بشكل أو بآخر ، يقول أحد الفرنسيين : «نحن في حاجة إلى جماعة من الدراويش ندفع لهم مكافآت شهرية ، ونوعز إليهم بالتكلّم في مختلف المناسبات ، ويكون كلامهم دائماً في مصلحتنا» (٣) .

والأمر لا يتعلق بالطرقية وحدها ، فقد سعت فرنسا بعد هذا إلى إيجاد «طبقة دينية إسلامية رسمية مأجورة ومهمتها إقامة العبادة في المساجد» (٤) وتكون العبادة وفق ما تريده فرنسا ، ولذلك يهزأ أحد الفرنسيين بهؤلاء ويسخر بهم قائلاً : «لقد أذللنا الدين الإسلامي ، وبلغ الأمر ألاَّ يعيّن فقيه أو إمام إلاَّ إذا شارك في أعمال الجاسوسية الفرنسية» (٥) .

---

(١) «فنون النثر الأدبي الجزائري الحديث»، د . عبد المالك مرتاض - ش و ن ت - الجزائر : ص ٨١ .

(٢) «تاريخ الجزائر المعاصرة» - شارل روبير أجيرون - ترجمة عيسى عصفور ، ط١ . منشورات عويدات بيروت - ١٩٨٢ : ص ١٠٥ .

(٣) «الجوانب النفسية في حروب التحرير»، د . حنفي بن عيسى - الثقافة - ع ٨٥ - الجزائر - ١٩٨٥ : ص ٢١ .

(٤) «تاريخ الجزائر المعاصرة» : ص ١٠٧ .

(٥) «الإمام عبد الحميد بن باديس» ، د . محمود قاسم : ص ٢٢ .

٢ ـ محاولة القضاء على اللغة العربية : وذلك بجعل اللغة الفرنسية بديلاً فعلياً لها ، فقد اعتبر الفرنسيون اللغة العربية «لغة أجنبية وميِّتة ، أجنبية لأنَّ اللغة الفرنسية كانت قد أصبحت لغة الجزائر الرسمية منذ قرار الإلحاق ١٨٣٤ ما دام هذا القرار في حد ذاته يعني أن الجزائر نفسها قد أصبحت فرنسية ، وميّتة لا لأن مصيرها قد انتهى كمصير اللاتينية والإغريقية فقط ، ولكن أيضاً لأنّها لن تكون قادرة على أن تصبح لغة حضارة»(١) .

وكانت النتيجة بعد هذا أن صارت اللغة العربية غريبة في عقر دارها ، يؤيدها الوضع الثقافي المسيطر ، الذي مالت فيه الكفَّة لصالح الفرنسية ، والأمر خطير لأنه لم يتوقف عند حدود زمن الاحتلال بل تجاوزه إلى استقلال الوطن ، حين آثر أتباع فرنسا لغة فرنسا ، وفضَّلوها على اللغة العربية التي مورس في حقِّها الاضطهاد ، بل والإرهاب الفكري .

٣ ـ إذلال الإنسان الجزائري المسلم : وذلك باتباع سبل وحشية منها التعذيب والتجويع والقتل ، ففي التعذيب أنشأت فرنسا مدارس خاصة بتعليم ضباطها ما يعرف بـ «فن التعذيب» ودفعت بهم إلى الشعب ليسوموه ألواناً من العذاب ، وقد وصف معاصر للزمن الفرنسي الأليم هذا العذاب بقوله : « . . . إن نظام الكولونيلات والسفَّاكين ، والسفَّاحين المتحكمين في قرى بلادنا ومدنها حلَّ محلَّ نظام الطغاة المدنيين ، من حكام استعماريين وشيوخ المدن المستبدين . إن شعبنا برمَّته يئنُّ أنيناً في المحتشدات وذعرها . . . » (٢) .

إن هذا التعذيب المصحوب بصراخ الرجال وهم يجرّبون مراحل السقوط الجسدي في قعر الزنزانات قد بلغ آذان كثير من الكتَّاب والمفكِّرين الفرنسيين أنفسهم ، ومن هؤلاء الفيلسوف الوجودي "جان بول سارتر" الذي أفزعه الموقف في سجن بربروس (*) فراح يتساءل عن هؤلاء الجلاَّدين « . . . أهم ساديون(**) أم هم

---

(١) «الحركة الوطنية الجزائرية» : ج ٢ ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٢) «ليل الاستعمار» ، فرحات عباس ـ ترجمة أبو بكر رحال ـ مطبعة فضالة المغرب ـ د . ت : ص٢٩ .

(*) سجن بربروس أكبر سجن عذّب فيه الأحرار الجزائريون من أدباء وشعراء وساسة أثناء الثورة التحريرية .

(**) السادية Sadisme نسبة إلى الماركيز دوساد الذي اتخذ عنواناً لنوع من الانحراف الذي يجعل صاحبه يتلذّذ بتعذيب الآخرين .

أسياد حرب ذووا أهواء مرعبة . . ؟» (١) ويعرض نفس الكاتب للتعذيب الذي أشرف عليه سيّد الجلاّدين "لاكوست" قائلاً : «إن جميع الناس الذين ماتوا من الألم والهول في مبنى البيار وفي مقصورة (س) إنّما ماتوا بإرادته» .

وفي التجويع : صادرت فرنسا الأراضي من أبنائها الذين أجبروا على الفرار إلى الجبال ، ومنحتها لقلّة من المعمّرين ، الذين تسمّوا بالملوك في أراضي غيرهم(*) ، وكانت النتيجة بعد هذا أن صار ابن الجزائر غريباً جائعاً في أرضه ، ويعبّر أحد الصحفيين الجزائريين عن هذه المحنة بقوله : « . . إن مئات الآلاف من المسلمين الجزائريين قد سدّت أمامهم سبل الرزق ، وغلّقت في وجوههم أبواب المعيشة ، وأصبحت المجاعة تطاردهم من مكان إلى مكان . . . » (٢) .

٤ ـ إيجاد طرف مناصر من أبناء الجزائر الذين تثق فرنسا في ولائهم لها ، أو ما يمكن أن ينعتوا بـ «الفرنسيين المستلحقين» وقد وصف الإمام عبد الحميد بن باديس خطر هذه الفئة بقوله : «نعرف كثيراً من أبنائنا الذين تعلموا في غير أحضاننا ينكرون ـ ربما عن سوء قصد ـ تاريخنا ومقوّماتنا ، ويودون لو خلعنا ذلك كلّه واندمجنا في غيرنا . . . » (٣) .

والمؤسف أن يستمر ولاء هذه الفئة لفرنسا بعد الاستقلال حين صارت تتحكم سراً وعلانية في شؤون البلاد والعباد فحاصرت اللغة العربية وفرضت حصاراً على الثقافة الإسلامية ، والأخطر من هذا أن يتحالف هؤلاء المستلحقون الفرنسيون مع الماركسيين ، إذ لا يستطيع دارس موضوعي لتاريخ الجزائر المستقلة أن ينكر بأنهم قد عملوا تحت هدف واحد ، هو تمجيد وترقية كل عامل ممكن يصلهم بفرنسا .

---

(١) «الجلاّدون»، جان بول سارتر ـ ترجمة عايدة مطرجي إدريس ـ مجلة الآداب ـ ع ٤ ـ ١٩٥٨ ـ بيروت : ص٤ .

(*) من بين هؤلاء المعمرين الذين لقبوا أنفسهم بالملوك في أرض الجزائر :

- هنري بورجو Henri Bourgeaut عضو مجلس الشيوخ ويلقب بملك العنب .
- جورج بلاشيت georges Blathette نائب مدينة الجزائر ويلقب بملك الحلفا .
- لوران سكيافينو Laurant Skhiaffino عضو مجلس الشيوخ ويلقب بملك الاحتكارات .

(٢) «الحالة الاقتصادية في الجزائر» ، أحمد بن عمر ـ المنار ـ عن ٤ ـ ١٩٥١/٠٥/٢١ ـ الجزائر .

(٣) «الإمام عبد الحميد بن باديس» : ص ٦٧ .

وأخيراً وبعد كل هذه الوحشية ، يتبجَّح الفرنسي ، ويزعم أنه بهذه الأعمال قد حضر الشعب الجزائري ، وأنقذه من الجهل والتيه «وقد نسي أنه حصد شعباً عن بكرة أبيه ، وجعل من أبناء الجزائر رجالاً خارجين عن القانون ، غرباء في عقر دارهم ، إنه ينكر أنه قذف بهم ـ وهم مكتوفي الأيدي ـ في مخالب الفقر وغياهب الجهل ، وجعلهم فريسة للدخلاء الأوربيين الذين استغلوهم استغلالاً ، فأصبحوا عرضة للاحتقار والازدراء والكره والامتهان ، وتلك هي الطامة الكبرى» (١) .

(١) «ليل الاستعمار» : ص ٢٨ .

ب ـ جمعية العلماء أو عندما يستيقظ الضمير

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة الإمام عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ـ١٩٤٠) منحة ربَّانية وهبها الله للجزائريين في زمن صعب ، راهن فيه الاحتلال الفرنسي الصليبي على تنصيرهم ، لقد تأسست هذه الجمعية في الخامس من مايو (أيار) عام ١٩٣١ لتضع حداً للحكم الفرنسي العابث ، يقول محمد البشير الإبراهيمي (١٨٨٩ـ١٩٦٥) في شأن الجمعية : «إن هذه الجمعية كالسحاب ساقه الله إلى بلد ميِّت ، فلا يقلع حتى يحييه ، وإذا كان لإحياء المطر للأرض معنى فوق التجديد ، فكذلك معنى هذه الجمعية ، وأن سائق المطر للبلد الميت هو سائق هذه الجمعية لهذا الوطن المشرف على الموت» (١) .

ونحن لا يهمنا أن نعرض لكل أعمال الجمعية ، فذلك ليس هدف البحث ، لكننا نريد أن نؤكد على منهج أساسي سلكته الجمعية فانتصرت به ، وكوَّنت بواسطته الأدباء والكتاب والشعراء ، وأحيت بفضله اللغة العربية ، التي تعرضت لوسائل الفناء في ظل لغة فرنسا ، وفوق هذا فقد أسست للإنسان الجزائري المسلم الذي خاض جهاد نوفمبر (كانون أول) ١٩٥٤ .

فأما منهج الجمعية فيتلخص في صراعها مع ثلاث جبهات هي : فرنسا والطرقية ، والإنسان ، الذي يجب أن يكون واعياً بحاله ومصيره ، والصراع لم يكن متاحاً إلاَّ بالوسائل العلمية التي وفَّرتها الجمعية ، ومنها إنشاء المدارس وتأسيس القاعدة الإعلامية ذات الصبغة العربية الإسلامية ، التي احتضنت آراء الرجال المخلصين وأفكارهم ، فبذلك بدأت صراعها مع الجبهات التي سنوجز الحديث عنها فيما يلي :

١ ـ مع فرنسا :

لقد سلكت الجمعية سبيل الصراع الحضاري المعلن المؤيد بالإيمان الرافض القوي ، فبيَّنت لفرنسا أن الجزائر جزء من الوطن العربي والإسلامي الكبير ، وأن ما

---

(١) «آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي» : ج ٢ ـ ش و ن ت ـ الجزائر : ص ٦٣ .

تدَّعيه ليس إلا سراباً فالجزائر «ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ، بل هي أمة بعيدة كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها . . . » (١) .

وتبعاً لهذا فإن الجزائر ذات انتماء إسلامي ، أو هي فرع من أصل أساسه «وحدة متامسكة الأجزاء يأبى الله لها أن تتفرق . . . ويأبى لها دينها إلا أن تكون موحدة»(٢) .

والمواجهة الحضارية لم تكن مع فرنسا فحسب ، بل مع أعوانها من دعاة الاندماج ، ويمكننا أن نقرأ ذلك في البيان الصريح الصادر عن جمعية العلماء في أفريل ١٩٣٦ رداً على هؤلاء الإندماجيين ، والذي جاء فيه : «نحن العلماء إذ نتكلم باسم أكثرية سكان البلاد الأصليين ، نقول لأولئك الذين يدعون أنهم فرنسيون : إنكم لا تمثلوننا ، وإن لشعب الجزائر تاريخه ووحدته الدينية ولغته وثقافته وتقاليده . . . »(٣) .

والجمعية محقَّة في هذه المواجهة المزدوجة ، فالشعب الجزائري المسلم قد عانى من هؤلاء الاندماجيين كما عانى من أبناء فرنسا ، فهم الداعون إلى لغة فرنسا ، وهم العاملون على نشر ثقافتها ، وفي ذلك يقول ابن باديس : «نعرف كثيراً من أبنائنا الذين تعلموا في غير أحضاننا ينكرون ـ ربما عن سوء قصد ـ تاريخنا ومقوماتنا ، ويودون لو خلعنا ذلك كله واندمجنا في غيرنا . . . » (٤) . وقد حققت الجمعية نصراً مؤزراً على الطرف الأول الذي هو الاستعمار الفرنسي ، أما الطرف الثاني فلم ينهزم إلا مؤقتاً ، حين عاود الظهور بعد الاستقلال ، ليشكِّل ظاهرة ثقافية اتباعية خطيرة ، تجلَّت في مجالات شتَّى منها : اللغة والفكر والأدب . . .

---

(١) «الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس» ـ محمد الصالح الصديق ـ ط١ ـ دار البعث ـ قسنطينة ١٩٨٣ : ص ٧٣ .

(٢) «آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي» ج ٢ : ص ٣٣ .

(٣) «تاريخ الجزائر» : ص ١٤٢ .

(٤) «الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية» ـ د . محمود قاسم ط٢ ـ دار المعارف ـ القاهرة : ص ٦٧ .

٢ـ مع الطرقية :

لقد شكل أصحاب الطرق الصوفية الهدف الأول في صراع الجمعية مع من يضادها ، ذلك لما حمله هؤلاء من سمات التواكل ، وقلّة الإدراك وعدم نضج الرؤى الحضارية ، التي تؤهلهم للوقوف ضد فرنسا ، يضاف إلى هذا ما شاب بعض أقطاب الطرق ومريديها من خيانة وولاء لفرنسا ، يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي يعد أجرأ رجال الجمعية على مقاومة الطرقية : «لعمرك إن الطرقية في صميم حقيقتها احتكار لاستغلال المواهب والقوى ، واستعمار بمعناه العصري الواسع ، واستعباد بأفظع صوره ومظاهره» (١) .

والحرب ضد الطرقية لا تعني في عرف جمعية العلماء التسلية أو المهاترة الحزبية ، أو النرجسية المذهبية ، بل هي الواجب العقيدي الذي يحتمه منهج الإسلام الصحيح ، الذي يرفض أن يضيع الناس بسبب شعوذات وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان ، يقول ابن باديس : «حاربنا الطرقية لما عرفنا فيها ـ علم الله ؟ ـ من بلاء على الأمة من الداخل والخارج ، فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحملنا في ذلك من صعاب . . . » (٢) .

فالصراع بين الجمعية والطرقية إذن ، لم يكن عداوة فرضتها استراتيجية السيطرة ، أو احتلال المواقع ، بل هو صراع من أجل إنقاذ هذا الإنسان الجزائري المسلم الذي كبلته فرنسا بأغلالها ، وكبله الطرقيون بالدروشة والتواكل ، يقول الإبراهيمي معلناً هدف هذا الصراع وحقيقته مخاطباً الطرقيين : «إن محل النزاع بيننا وبينكم هو هذا العامي ، نريد أن نحرِّره من استعبادكم ونطلقه من أسركم . . . نريد لهذا العامي أن يؤمن بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبالكعبة قبلة ، وبالقرآن إماماً ، وبمحمد رسولاً ، وأن لا يرجو النفع إلاَّ من ربِّه ولا يستدفع الضر إلاّ به ، وأن لا يستعين بعد الأسباب الكسبية إلا بقوته ، وتريدون منه أن يشرككم مع الله في الدعاء ، أو يدعوكم من دونه وأن يلتجئ إليكم ، حتى فيما هو من خصائص الألوهية ، وأن يشد الرحال لبيوتكم كما شدها إلى الله »(٣) .

---

(١) آثار محمد البشير الإبراهيمي : ص ١٠٤ .

(٢) الإمام عبد الحميد بن باديس : ص ١٥٢ .

(٣) «آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي» : ص ٤٤ .

٣ـ مـع الإنســان :

لقد راهنت فرنسا على جزائري تابع خاضع مندمج ، وراهنت عليه جمعية العلماء حراً أبياً عزيزاً ، لكن ذلك لم يكن مستطاعاً إلا بجهود مضاعفة أداها رجال الجمعية مزودين بمنهج دقيق حقّقوا به نجاحاً باهراً ، تمثل في الإنسان الجزائري المسلم ، الذي عرف ذاته وأبصر حقيقته ، فأنجز الجهاد الذي أهله للسيادة ، أما أسس المنهج الذي تعاملوا به مع الإنسان فنوجزه في الآتي :

أ ـ العقيدة الصحيحة :

إن المسلم لا يستطيع أن ينجز مهمات حضارية ذات سمات إسلامية إلاّ إذا امتلك ذاته التي لا تقوم إلاّ بالعقيدة الصحيحة قال تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[١] ولعل محنة المسلمين في عصرنا هذا إنّما جاءتهم من قبيل الخلل الذي أصابهم فيما اعتقدوا ، فضعف الإيمان وندرة المراقبة لله في شؤون دينهم ودنياهم وقلة الوازع الديني ، كل هذه قد جعلتهم عاجزين عن الصراع فاقدين لأدوات الإدراك السليم ، وهكذا صار قانون الحكم عندهم مشلولاً ، فلا فرق لدى المسلمين بين الإسلام ، وما يحكم العالم من شعوذات وأباطيل .

ولو عدنا إلى علماء الجمعية لأدركنا فهمهم السليم للإسلام وفقههم الناضج للواقع الجزائري آنذاك ، فكان أن بدؤوا في تكوين الناس إسلامياً ، يقول عبد الحميد بن باديس : «فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد من حالتنا ، فنقطة البدء في أي إصلاح هي تطهير العقائد من الشرك والأخلاق من الفساد»[٢] .

ولا يقدر على هذا إلاّ المسلم الواعي ، الذي اعتنق الإسلام فهماً وإدراكاً لا تقليداً ووراثة ، وقد وضّح ابن باديس هذا المفهوم في مقال له عن الإسلام الذاتي والإسلام الوراثي قائلاً : « أما الإسلام الذاتي : فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام ويدرك

---

(١) البقرة : ١٦٣ .

(٢) «الإمام عبد الحميد بن باديس» : ص ٥٠ .

محاسن الإسلام في عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله ، ويتفقه ـ حسب طاقته ـ في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ويبني كل ذلك على الفكر والنظر» (١) .

ويؤكد الإبراهيمي الهدف نفسه قائلاً : «فكان من الحكمة أن تبتدئ الجمعية بتطهير النفوس من هذه الرذائل ، وأن تجعل من صرخاتها عليها نذيراً للناشئة أن تتلطخ نفوسهم بشيء من أوضارها ، وأن تكون دروس رجالها مؤدية لغرضين : لغرض الإصلاح العلمي بأسلوبها ولغتها ومناهجها ونوع كتبها ، ولغرض الإصلاح الديني بمعانيها ومواضعها» (٢) .

ب ـ العلم النافع :

لقد أدرك زعماء الجمعية أن الصراع مع فرنسا لن يحسم لصالح الجزائري المسلم إلاَّ بالعلم الذي يؤهله لأن يتحدى حضارياً ، والعلم في عرف الجمعية هو تلك المعارف والمدركات الواسعة التي تتَّخذ القرآن والسنَّة مصدراً لها ، ثمَّ تنفتح بهما على شتى العلوم كالفقه والتفسير والنحو والرياضيات ، وكل معرفة تؤدي إلى رقي الإنسان المسلم وازدهاره .

فالعلم عند الجمعية بهذا المعنى لم يكن وعظا ظرفياً أو عملاً خيرياً بل هو المشروع الإصلاحي المرتجى ، الذي ألجأ رجال الجمعية إلى إنشاء مؤسسات علمية في أنحاء عديدة من الوطن ، كان عددها عام ١٩٤٧ أكثر من تسعين مدرسة ، تضم أكثر من أربعين ألف طالب ، وكان مريدوها من الصغار والكبار «فقد وضعت الجمعية برنامجاً صالحاً لتعليم الصغار اللسان العربي ، وتكميل معلومات من تعلَّموا باللسان الأجنبي كما خصَّصت دروساً للكبار» (٣) وكان الهدف من هذا البرنامج التأسيس والإنقاذ ، تأسيس لجيل جزائري جديد وإنقاذ من تعلَّم في مدارس فرنسية أجبرته على التزويد بثقافة لا تخدم إلاَّ فرنسا .

---

(١) المرجع السابق : ص ٩٤ .

(٢) «آثار الشيخ محمد الإبراهيمي» : ص ٧٠ .

(٣) «الإمام عبد الحميد بن باديس» : ص ١٢٥ .

والأمر لا يتعلق بالتعليم في المدارس وحدها ، بل يتعدَّاها إلى مؤسسات أخرى : كالنوادي مثلاً التي يقول البشير الإبراهيمي بشأنها : " جمعية العلماء ترى أن النوادي التي أسستها أو تؤسسها هي في حكم مدارس التعليم ، ومكملة لوظائفها ، لأن طبقات الأمة ثلاث : «صغار» تضمنهم المدارس الإبتدائية ، و«كبار» تجمعهم المساجد ، و«شباب» تتخطفهم الأزقة وأماكن الخمر والفجور ، فإذا أرادت الجمعية أن تقوم بواجبها الديني معهم ، لم تجدهم في المساجد ولا في المدارس ، فمن واجب الجمعية أن تنشط النوادي لتقوم بمهمتها التهذيبية فيها"(١) .

والفهم سليم ، يدل عليه عمق الوعي الحضاري الذي بلغه رجال الجمعية ، وهو الوعي الذي غاب كثيراً عن الشعوب الإسلامية ، التي تفتقر إلى الإدراك السليم لمفهوم الزمن في حياتها ، فالمسلمون في حاضرنا لا يعون كثيراً مراحل العمر التي يمرون بها ، ولا يدركون حق كل مرحلة وواجبها ، ويأتي ذلك من قبيل الفراغ العقيدي والعلمي الذيي أصابهم في أنفسهم .

هذه هي جمعية العلماء ، وهذا هو نشاطها الذي أهَّلها ، لأن تفوز في صراعها مع الصليبية ، والذي جعلها تحقق الآتي :

١- القضاء على «الشعوذة والتدجيل» وذلك بسحبها لمبادرة قيادة الأمة من أيدي الطرقيين .

٢- إحياء فكرة «الوطن الجزائري المسلم» الذي حاولت فرنسا طمسه ، يقول أحد الكتاب الفرنسيين في شأن هذه الحقيقة : «إن مجددي فكرة الوطن الجزائري هم بالأحرى هؤلاء الذين أسسوا جمعية العلماء ، أي الشيخ عبد الحميد بن باديس وأشد أتباعه حماسة . . . فمنذ سنة ١٩٣٠ نرى في الواقع أن هؤلاء الرجال ذوي الثقافة الرفيعة والعلم الواسع ـ وهم من أقوى الشخصيات الإسلامية في المغرب المعاصر ـ قد ربطوا محاولتهم لتجديد الإسلام وللقضاء على الطرق الصوفية بمحاولة تجديد الوطن الجزائري» (٢) .

---

(١) «آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي» - ج١ : ص٣٤١ .

(٢) «الإمام عبد الحميد بن باديس» د . محمود قاسم : ص٢٨ .

والشهادة نفسها أكدها مؤرخ فرنسي آخر بقوله : «وعادت المبادرة في الجزائر إلى علماء ثلاثة ، كانوا قد تلقوا علومهم خارج الجزائر وهم : عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي والطيب العقبي ، وشرع هؤلاء بإصلاحات لإعادة الإيمان إلى صفائه ، وبإصلاحات أيضا لتعريب الجزائر المهددة بالفرنسة . . . وعندئذ ظهرت في لغة الجزائر العربية كلمات ذات معنى جديد مثل : وطن ، الأمة الجزائرية ، الشعب . . . »(١) .

٣ - تكوين ثقافة أدبية وفكرية ذات انتماء «عربي إسلامي» إذ لولا الجمعية ما قرأنا ـمثلاًـ ذلك الكمَّ الهائل من القصائد التي يزخر بها القاموس الشعري لجمعية العلماء ، وهو القاموس الذي حملت لواءه صحف (كالشهاب والبصائر ، والمنتقد ، والسنة والصراط) يقول ابن باديس : «الحقيقة التي يعلمها كل أحد أن هذه الحركة الأدبية ظهرت واضحة من يوم أن برزت جريدة المنتقد ، فمن يوم ذلك عرفت الجزائر من أبنائها كتّاباً وشعراء ما كانت تعرفهم من قبل»(٢) .

٤ - إعداد الإنسان الواعي الذي آمن بقضيته العادلة ، فأنجز في سبيلها جهاد نوفمبر (كانون الأول) الخالد ، آل بالجزائر إلى الاستقلال ، وآل بأهلها إلى «الشرق الإسلامي» الذي اجتهد أبناء فرنسا ذات يوم في إلغائه .

جـ - الاستقلال وبنية التضاد :

رأينا من قبل كيف كان الصراع على أشده بين مشروع فرنسي نصراني ، وآخر عربي إسلامي يطمح إلى التحرر ، وعرفنا أن نتيجة الصراع كانت رائعة حين تمخضت عن استقلال الشعب الجزائري ، وهزيمة فرنسا هزيمة نكراء ، لكن المشلكة تكمن في زمن الاستقلال الذي نسأل بشأنه الآتي :

كيف كان؟ ما سماته؟ ما هويته؟ ، وتكون الإجابة بما يلي :

إن استقلال الجزائر يعني : «ولادة الإنسان المسلم من جديد» بعد أن حاول الاستعمار الفرنسي طمسه ، ويعني أن يمارس الشعب وجوده ، وأن يشكل حياته في

---

(١) «تاريخ الجزائر المعاصرة» : ص ١٤٠ـ ١٤١ .

(٢) «الشهاب» : ج١، فيفري (شباط) ١٩٣٠ .

ظل مبادئ جهاد نوفمبر (كانون الأول) ذلك أن الشعب هو الذي قال : لا للاستعمار ، وفي سبيلها جاهد ، واستشهد ، فصانع العز هو الشعب ، ومحقق الانتصار هو ، فهل تم له ما أراد؟ وهل حقق هويته؟ وهل سار على نهجها؟ .

إن الإجابة عسيرة دون شك ، ذلك لأن ما وقع بعد الاستقلال لا يجعلنا نجيب بنعم عما سبق من الأسئلة ، نقول هذا ونحن متأكدون من أننا لم نبالغ أو نظلم أو نغالط ، فقراءتنا الموضوعية لزمن الاستقلال ، ومعاناتنا كواحد من أبناء الشهداء الشاهدين على زمن الإ ستقلال هي التي أرشدنا إلى هذه الحقائق ، يقول أحمد سحنون :[1]

طفح الكيل وانتهينا لحال ... رب رحماك إنها شر حال
فغدونا مستعبدين كأن ... لم نتحرر أو نحظ باستقلال
ومحونا الجهاد والدم والـ ... ـدَمع بقبح الأفعال والأقوال
ونسخنا آي الكتاب بما ... لم يجر للمؤمنين يوماً ببال
بقوانين ضحلة وضعت ... ها يد كل سياسي دجال

هكذا بدت سمات الاستقلال منذ الأيام الأولى ، فعندما كان الشعب يحتفل بإنجازه العظيم ، فإن تطورات خطيرة كانت تتم في الكواليس ، حين كان السياسي يبحث عن «أناه» في ظل طموحات وأطماع غير مشروعة! .

وبقدر ما كانت الفرحة عظيمة ، كانت الأنانية أعظم! يقول مالك بن نبي في هذا الشأن : «الوطن يتذكر كيف كاد ذلك اليوم أن يكون أحلك أيام الثورة ، لأن بعض الفئات دنست اللحظة الجليلة بنزعات فردية . . . »[2] ومن خلال هذه «النزعات الفردية» المؤيدة بالمستلحقين الفرنسيين بدأ جلال الجهاد يتلاشى ، وتلاشت معه فرحة الاستقلال الذي فسر على أنه انتصار عسكري في أغلب الأحيان ، وتبعاً لذلك فإن المرجعية الثورية المتكونة من «العربية والإسلام» ومن الفعل السليم ، قد غدت بعد الاستقلال هدفاً لامتدادات أيديولوجية صارت مرادفات للفعل الثوري ، يقيس بها

---

(١) «ديوان أحمد سحنون» ـ ش و م ت ـ الجزائر ـ ١٩٧٧ : ص ١٦٤ .

(٢) «بين الرشاد والتيه» ـ مالك بن نبي ـ ط١ ـ دار الفكر ـ ١٩٧٨ ـ دمشق : ص٢٦ .

المجتمع تفوقه ، ويعتمدها كمصدر لكل عمل يقوم به ، لقد نسي هـؤلاء الأنـانيون أنه لولا الإخلاص لله المؤيد بالشهادة لما كان الاستقلال ! .

وقد صحب هذا السلوك تحرر الأسس الثقافية والفكريـة والقانونيـة ، التـي تحكـم المجتمع من «المرجعية الثورية» وإن بقيت فـي الجزائـر الرسـمية ، والمقـررات التـي لا تتعدى غالباً مرحلة الشعار .

وكانت النتيجـة بعـد هـذا أن فشـلت الأسـس السـابقة حيـن سـاعدت علـى عـزوف «السوسيوسيكولوجي الشعبي» عن أمور لم يشارك فيهـا ، أمـا النتيجـة الثانيـة : فتكمـن في النفور الملاحـظ بيـن جيليـن مـن أبنـاء الجزائـر المستقلة ، جيـل أنجـب الاسـتقلال وأسس للذات وللهوية الحضارية ، وجيل برز بوصفه المستفيد من الثورات التي يحتاج إليهـا لا بوصفهـا نموذجـاً للاقتـداء ؛ بـل لأنَّهـا تعمـل علـى إبقائه مسيطراً مـن خـلال «المرجعية المحرفة» التي تلغي التناغم بينه وبين الجيل الأول .

هذه هي الفواصل التاريخية ، التي لا نستطيع أن نقـرأ شـعر أحمـد سـحنون إلاَّ فـي ظلهـا ، فتفاعلاتهـا مجتمعـة قـد أدَّت بشـعره إلـى أن يصطبـغ بخصوصيـات ، سـتكون حديثنا في المباحث القادمة .